(يُغلَق بابٌ ويُفتَح باب)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبي اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:22-23].

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

سأل بعض الأمراء وزيره عن قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فلم يعرف معناها، واستَمهَلَه إلى الغد، فانصرَف كئيباً إلى منزله، فقال له غلامه: ما شأنك؟ فأخبره، فقال له: عُد إلى الأمير فإني أفسِّرها له، فدعاه فقال: أيها الأمير، شأنه أن يُولِجَ الليل في النهار ويولج النهار في الليل، ويُخرِج الحي من الميت ويُخرِج الميِّت من الحيّ، ويشفي سقيماً ويُسقِم سليماً، ويبتلي معافى ويعافي مبتَلى، ويُعِزَّ ذليلاً ويُذِلَّ عزيزاً، ويُفقِر غنياً ويُغْني فقيراً، فقال له: فرَّجتَ عنّي فرَّج الله عنك، ثم أمَرَ بخلع ثياب الوزير وكساها الغلام، فقال: يا مولاي، هذا مِن شأن الله تعالى[1].

---

[1] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي [17/ 167].

عنوان خطبة اليوم:

(يُغلَق بابٌ ويُفتَح باب)

إنه من الثابت –أيها الإخوة– أنه في أغلب الحالات لا يُغلَق باب إلا ويُفتَح معه بابٌ آخر، لكن غالباً ما يصيبنا الارتباك ونُشغَل بالباب الذي أُغلِق عن رؤية الباب الذي فُتِح...

سيرة الأرض بمن عليها تُنبِئ بأن دوام الحال من المحال، وبأن كلَّ شيء هالكٌ إلا وجه الله الكريم، وبأن الأفراد والأسَر والمجتمعات تمرُّ بفترات راحة وفترات تعَب، وأزمنة انتصار وأزمنة انكسار، وأوقات ضيق وأوقات فرَج.

وجَرَت عادة النَّاس الذين لم تَصقُلهم التربية العالية أنهم يقنَطُون عند الشدائد وتطيش أحلامهم عن الفَرَج والسُّرور.

وقد عاب القرآن الكريم عليهم بقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج:19-21].

واستثنى منهم أولئك الذين تربِّيهم الصلاة وتؤدبهم الشريعة، فقال: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج:22].

وقصَّ علينا القرآن مراراً أحوال الأمم السابقة وعلاقة أنبيائها بسلاطينها وبكُبَرائها، وعَرَضَ لبطش الباطل بالحقِّ وأهلِه، غير أنه حَرَصَ على الإلقاء في رَوع الأمَّة أنَّ الحقَّ يملك طاقة الانتصار والغلَبة مهما كانت فداحة الخطوب التي تواجهه وشدَّة الأزمات التي تعترضه.

ونبَّه القرآن الكريم إلى معونة الله تعالى التي كانت تأتي النبيَّ من حيث لا يحتسب، وفي اللحظة الأخيرة.

فعندما قال أصحاب سيّدنا موسى لموسى عليه السلام إذ أدركهم فرعون وملؤه ليبطشوا بهم ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:61- 63].

وعندما ألقى النُّمرود سيدنا إبراهيم عليه السلام في النار جاءت المعونة الإلهية بقلب نواميس الكون فغدَت النار الحارقة برداً وسلاماً ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا

﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء:68-70].

وكذلك أنجى الله نوحاً ومَن معه في الفُلك، ويوسف من الجُبِّ والسِّجن، وإسماعيل من الذَّبح، وعيسى من الصَّلب، ويونس من بطن الحوت، ومحمد من غار ثور وبدر والأحزاب وحنين.. صلوات الله عليهم أجمعين.

كلّ هذا يرمي إلى أن نبقى محتفظين بالأمل مهما كانت الحال، والثقة بالله مهما اشتدَّ الخناق، ما دمنا مع الحق والتقوى صابرين..

أخرج ابن كثير عن محمد بن إسحاق قال: جاء مالك الأشجعي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: له أُسِرَ ابني عوف. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أَرْسِل إليه أنَّ رسول الله يأمرك أن تُكثِر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله**».

وكانوا قد شدّوه بالقِد، فسقط القدّ عنه، فخرج، فإذا هو بناقة لهم، فركبها، وأقبل فإذا بسَرْح القوم الذين كانوا قد شدُّوه، فصاح بهم، فاتَّبع أولَها آخرُها، فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادي بالباب، فقال أبوه: عوف وربِّ الكعبة.

فقالت أمُّه: واسوأتاه!! وعوف كيف يَقدم لما هو فيه من القِدّ، فاستبقا الباب والخادم، فإذا عوف قد ملأ الفناء إبلاً، فقصَّ على أبيه أمرَه وأمرَ الإبل، فقال أبوه: قِفا حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسأله عنها. فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرَه بخبَر عوف وخبَر الإبل، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**اصنَع بها ما أحببتَ، وما كنتَ صانعًا بمالك**». ونزل: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:2-3].

يا أيها الإخوة:

كتب أحد الدعاة يقول: (لدينا العديد من النصوص التي تؤكِّد أن التَّدهور والأزمات ليست شيئاً خطِّياً متصلاً، فهناك دائماً إمكانية لإدخال نوع من التحسُّن على أوضاعنا العامة، بل إن عدداً من النصوص ينبِّهنا إلى أن الكروب والشدائد تواري في داخلها نويَّات للانفراج والرخاء والتقدُّم، وهذا ما نجِده جليّاً في قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾

[الشرح: 5-6]، وما نجده في وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما: **«واعلم أن النَّصر مع الصَّبر، وأنَّ الفَرَجَ معَ الكَرب».**

وتبشِّر نصوص عدَّة بأنَّ تاريخ هذه الأمة سيظلّ يشهد موجات من الصلاح والإصلاح على الرَّغم من خسارتها لبعض المواقع وعلى الرّغم من تراجع بعض جوانب الخير فيها...

ومِن تلك النصوص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«مَثَل أمتي مَثَل المطر، لا يُدرَى في أوّله خير أو في آخره»** [أحمد والترمذي].

أيها الأخ الكريم:

المنهج الربَّاني يدعوك إلى أن تستعلي على الظروف الحاضرة، وأن تجعل نفسك دائماً بؤرة إشعاع يضيء للناس طريق الخروج من النَّفق المظلِم أو يساعدهم في ذلك ما استطاع، مستعيناً في ذلك بربِّك، وآخذاً من تربيتك الإيمانية التي علَّمتك أنه لا يُغلَق دونك بابٌ إلا فَتَحَ الله لك أبواباً.

والحكَماء يَعلمون أن الأزمة وإن كانت مؤلمة موجِعة خانقة فإن لها فوائد يمكن لمن يتبصَّرها أن يفيد منها أفراداً وجماعات.

فقد ذكروا أنَّ مِن فوائد الأزمات أموراً أعرِض عليكم منها ثلاثة أختم بها الخطبة:

1) عندما تستفحل الأزمة يوقِن المرء بضعفه وفقرِه وحاجته إلى الغني الحميد، عندها تنصرف همته إلى التعلُّق بخالقه والتوكُّل والاعتماد عليه والالتجاء له وهذا هو محض الإيمان، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام:42].

2) تمنح الأزمات العقلاءَ من الناس الفرصة للمراجعة والنَّقد ولوم النفس على ما كان منها من أخطاء وتقصير وإساءة، فيصحِّحون ما أفسدوا ويصوِّبون ما أخطؤوا به.

كتب أحدهم يقول: (إنَّ مِن شأن الأزمة أن تُوهِن البُنى المختلفة وتخلّ بالتوازنات القائمة، ولكنها تطلَق أيضاً آليات تعويضية واستجابات جديدة وغير متوقَّعة، وبذلك تصبح الأزمات عامل تطوّر ومناسبة لإحراز تقدُّم جديد.

ومن هنا كان المرادف لكلمة أزمة في الاستخدام الإغريقي القديم يعني (نقطة اتخاذ القرار)، أما المرادف الصيني لها فإن له معنيين؛ أحدهما للحظر، والآخر للفرصة.

3) إن عيشَ الناس من غير أزمات وظروف متعاكسة كثيراً ما يؤدي إلى انحطاطهم، فالبيئة السهلة التي لا تستدعي أيَّ كفاح ترَكد فيها ملكات الإبداع، ويسيطر عليها الفراغ والتَّرف، وفي العالم اليوم مصطلح جديد، هو (خيانة الرخاء)، فالرخاء الشديد لا يقلُّ في أذاه عن التأزم الشديد.

والأزمات تعرك الرجال وتسبِك معادنَهم، وتصهَرهم في بوتقة جديدة من السعي الدؤوب والعمل الجماعي للبحث عن مخرَج وأفقٍ جديد.

أيها الإخوة:

ساعات الأذى يُذهِبنَ ساعات الخطايا، و«**ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه**» [البخاري ومسلم].

ثِقوا بأن الله لا يَترك أولياءه لأعدائه إلا ليكرِّم أولياءَه ويمحَق أعداءَه، وأيقنوا أنَّ العاقبة للتقوى، وأعينوا بما استطعتم الخلق، واعتصموا حيث كنتم بالحق، واصبروا حتى يأتي أمه الله..

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:90].

والحمد لله رب العالمين